رابعة العدوية

للآنسة دعد الكيالي

زهرة بيضاء مندأة بقطرات المناجاة والصلاة والخشوع ، نبعة فياضة من نبعات الحب الإلهي الخالد الأكيد ، شمعة قدسية احترقت بدموع العشق الروحاني النقي الطاهر ، قديسة عابدة مهجدة في هيا كل الليالي مسبحة في ظلال الأسحار ، عذراء بتول انتصرت على الآلام المادية ومسخت عملاق الشهوات الجبار فإذا به قزم لا حول له ولا طول ، نغمة صوفية غريبة ذات طابع جليل رائع ، شخصية حلوة جذابة أقل ما يقال فيها أنها نسيج وحدها بين الشخصيات النسوية .

تلكم هي شاعرتنا المتصوفة الكبيرة «رابعة العدوية» وإليكم ترجمة حياتها :

هناك في مدينة البصرة العراقية حيث يلتقي الأخوان دجلة والفرات ، أجل في تلكم المدينة المتضوعة بخمائل النخيل رمز الصحراء المتصوفة وتمثالها ولدت سيدتنا العظيمة «رابعة» وكان هذا في أواخر الربع الثاني من القرن الأول الهجري ، ذلك العصر الذهبي الذي كان للمرأة العربية فيه شأن قبيل أن ينال الوهن الفارسي والترف الروماني من حرية ابنة الصحراء الحرة الساذجة التي كانت تختلط بالرجل ذلك الاختلاط النبيل المحصن بالعزة والكرامة .

كانت شاعرتنا المتصوفة مولاة لآل عتيك ، توفي عنها أبواها وهي لما تزل رطبة العود ، غضة السن تخلفهما على رعايتها رجل فظ غليظ كان يرهقها بالأعمال الكثيرة ، ويعاملها بمنتهى الظلم والقسوة . فكانت المسكينة تحتمل كل هـذا بصدر رحب وتحتسب عند الله ما تلاقيه من العذاب والآلام . ثم ماذا ؟ ثم بيعها سيدها من رجل آخر لا يقل عنه جوراً واستبداداً فتتقبل المسكينة قضاء الله المحتوم بسكينة ووقار ، وتنطوي على نفسها وتتلقى التعب والنصب بالبسمة الراضية وتقوم بما وكل إليها سيدها من الأعمال خير قيام .

وذات يوم بينما كانت تسعى لشأن من شئونها في أحد شوارع البصرة وماها بعضهم بنظرة سوء فأشاحت بوجهها عنه فزلت قدماها وكسرت ذراعها فأغمى عليها . وأخيراً نهضت وقد انطوت نفسها على الحسرة والألم ؛ وبصوت متهدج من الخشوع أخذت تقول : «رباه قد انكسرت ذراعي وأنا أعاني الألم واليتم ، وسوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه . ولكن عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحي ويفكك أوصال الصبر في نفسي منشؤه ريب يدور بخلدي . وهل أنت راض عني يا إلهي ؟ هذا ما أتوق إلى معرفته» .

وما كادت تتم نجواها هذه حتى سمعت هاتفاً من وراء الغيب يساقط في أذنيها هذه العبارة : «لك يا رابعة [illegible] الأجر [illegible] الملائكة من أجلها» فشاع في نفسها السرور ، وانتشت من فرط الطرب فقفلت راجعة إلى بيت سيدها والأحلام السماوية تداعب أوتار قلبها بأناملها السحرية .

وفي ذات مرة أرق سيدها فسمع في جوف الليل صوتاً راعشاً أكسب الدار جواً مهيباً رائعاً فاهتز له قلبه . وطفق يبحث عن مصدره ، وكم كان عجبه شديداً عندما أطل من ثقب الباب فرأى رابعة تصلي بحرارة وإخلاص بالغين ؛ وبصوت عميق معبر سمعها تقول : «ربي إنك تعلم أن أشد ما أتوق إليه هو عبادتك وتأدية مالك من حقوق ؛ ولكنني أسيرة لا أملك حريتي الشخصية ، فلا سبيل إلى تحقيق هـذه الغاية فلتعذرني يا إلهي» وعلى أثر ذلك دبت الحية في صدر الرجل . وفي اليوم التالي أعتقها فكادت ترقص من عظم السرور . وأقامت وحدها في منزل متواضع وقامت بأود نفسها من كسب يدها فعملت بالحديث النبوي الشريف : «لا تكونوا كلا على الناس» .

ومما لا شك فيه أن شاعرتنا كانت ملمة بمبادئ القراءة والكتابة وهي بعد عند مولاها فلما أن حصلت على حريتها نمت هذه المبادئ وترعرعت .

وكأننا بها وهي متنقلة بين مساجد البصرة العلمية الزاهرة تنهل من موردها العذب وتعل من نميرها السلسال فلا تمضي مدة طويلة حتى تغدو عالمة العصر وأديبة الجيل .

وقد كانت على فقرها محببة إلى القلوب يجلها حتى أكابر العلماء ويستفتونها في دقائق التصوف والفقه ويتناقشون معها ويناظرونها فيصبح بيتها على حقارته محجة المتصوفين وقبلة العلماء والفضلاء فيدعونها عن جدارة واستحقاق بتاج الرجال . ولقد كان بينها

وبين بعضهم صداقة متينة حتى إن أحدهم كان لا يستطيع الصبر عن لقائها فيقول : «مروا بنا إلى المؤدبة فإنني لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها » .

وسئلت يوماً : «أتحبين الله كثيراً ؟» فقالت : «بلا ريب» فقيل لها : ألا تعدين الشيطان عدواً لك ؟ فقالت : « ان محبة الله قد ملأت أرجاء قلبي فليس فيه متسع الى القلق والاضطراب من عداوة الشيطان » .

ومن وصاياها . « أكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم » وكانت تقول : « محب الله لا يسكن حنينه وأنينه حتى يسكن مع محبوبه » . وحقاً لقد كانت رابعة هكذا بكاءة لا تنقطع لها عبرة حتى أن موضع سجودها كان كهيئة المستنقع من دموعها . وتحدثنا الرواية أن كان يغشى عليها لمجرد ذكر النار .

كانت ذات إرادة حديدية، أهانت الدنيا واحتقرتها، وأرادت الحرمان وفضلته، وأحبت الوحدة وتعشقتها .

كانت تنام على حصيرة بالية ؛ وكان موضع الوسادة قطعة من الآجر، وكانت تشرب من إناء مكسور وتطوى ليلها مسهدة تصلى لله وتناجيه حتى إذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة ولكنها ما كانت تلبث غير قليل حتى تهب من مرقدها فزعة تغالب النعاس وتتحدى النوم قائلة : « يا نفس كم ذا تنامين وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » . كان من عادتها أن تصوم سبعة أيام وتنقطع إلى العبادة والزهد ليالى لا تفتر أثناءها عن مناجاة النفس بهذا الخطاب « إلى متى تعذبين نفسك يا رابعة وتحملينها مشقة وهى مشقة ليس بعدها مشقة ! » وهى فى ذلك ذات مرة إذا برجل يدق عليها الباب وفى يده صحن من الطعام يتركه لديها ثم ينصرف . أما هى فتأخذ الصحن وتضعه فى زاوية من الغرفة وتتشاغل بإصلاح القنديل . وإنها لكذلك إذا بهرة تدخل فتأكل الطعام الذى فى الصحن . وطالما تعود رابعة فترى الصحن خاوياً فتقول فى نفسها : « لا بأس . أفطر على الماء » ولكنها عندما تذهب لتعود بالماء ينطفىء القنديل فلا تطيق احتمالا وتقول : « اللهم لم هذا العذاب » ؟ فتسمع هاتفاً يقول : « لو شئت يا رابعة وهبنا لك جميع . ما فى الدنيا ومحونا ما فى قلبك من نار العشق لأن قلبا مشغولا بحب الله لا يشتغل بحب الدنيا » فتذرف رابعة دموع الندم وتعزم على ألا تعود للتذمر مما هى فيه .

والجميل الطريف فى رابعة أن زهدها ما كان عجزاً منها عن اللذات وقصر باع فى نيل الغنى فقد خطبها كثير من الأغنياء والفضلاء منهم الحسن البصرى المشهور أمره فردته كما ردت غيره وبعثت اليه بهذه الأبيات :

راحتى يا أخوتى فى خلوتى   وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً   وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنت أشاهد حسنه   فهو محرابى اليه قبلتى
إن أمت وجداً وما ثم رضاً   واعنائى فى الورى واشقوتى
يا طبيب القلب يا كل المنى   جد بوصل منك يشفى مهجتى
يا سرورى يا حياتى دائماً   نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هجرت الخلق جمعاً أرتجى   منك وصلا فهو أقصى منيتى

وكثيرون هم الأغنياء الذين كانوا يعرضون عليها الدور الفاخرة المترفة الغارقة بالحرير . وكثير منهم أولئك الذين كانوا يلحون عليها بقبول الدنانير الكثيرة فكانت ترفض هذا كله وتفر منه فرار السليم من الأجرب . فمن ذلك أن رجلا أتاها يوماً بأربعين دينارا ورجاها أن تقبلها قائلا : « تستعينين بها على بعض حوائجك » . فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت : « هو يعلم أنى أستحى أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟ »

وأجمل من هذا وأروع أنها كانت تعبد الله بعاطفة حب تنزهت عن الغرض المادى وسمت فوق مخاوف الجنس البشرى ومطامعه وفى ذلك تقول : « إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقنى بنار جهنم . وإن كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها . وأما إذا كنت أعبدك يا إلهى من أجل محبتك فلا تحرمنى من جمالك الأزلى » .

أما شعرها فهو فى الذروة من شعر التصوف . وحسبها فخراً أن أحدهم قال : « كانت رابعة السابقة إلى قواعد الحب والحرمان فى هيكل التصوف الإسلامى وان الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر فى باب الحب والحزن فهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية امام العاشقين والمحزونين فى الاسلام » .